﴿١١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ

الدّأب ، بالتّسكين والتّحريك أيضاً كَنَهْر ونَهَر ، هو الصّنيع والحال والشّأن والأمر والعادة كما يقال : لا يزال هذا دأبى ودأبك[1] وأصل الدّأب من دأبت فى الأمر دأباً إذا أدمت العمل والتّعب فيه . ثمّ إنّ العرب نقلت معناه إلى الشّأن والأمر والعادة كما قال امرؤ القيس بن حجر :

وإنّ شفائى عبرة مهراقة ... فهل عند رسمٍ دارسٍ من معوَّل

كدأبك من أمّ الحويرث قبلها ... وجارتها أمّ الرَّباب بمأسل

يعنى بقوله : كدأبك ، كشأنك وأمرك وفعلك[2] .

وعن الضّحاك عن ابن عبّاس فى قوله : كدأب آل فرعون قال : كصنع آل فرعون[3] وكذا روي عن عكرمة ومجاهد وأبى مالك والضّحّاك وغير واحد[4] .

والأخذ فى الآية الكريمة بمعنى الإهلاك ويقترن باستعمال الأخذ فى القرآن الكريم بالألم والشدّة ، وقد جاء فى سورة هود[5] قوله تعالى : « وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إنّ أخذه أليمٌ شديد » .

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ الّذين كفروا بآيات الله تعالى فى المقام الأوّل لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله تعالى شيئاً وأولئك هم وقود النّار ، وتضرب الآية الكريمة الّتى نحن بصددها الشّبه بآل فرعون والّذين من قبلهم الّذين كذّبوا بآيات الله تعالى فأخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر وأهلكهم بذنوبهم انتقاماً ونكالا . إنّ حال

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣٤٩ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٢٧ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٢٧ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٣٤٩ .
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ٣٤٩ .
(٥) الآية ١٠٢ .

الكافرين من العرب وبنى إسرائيل كحال آل فرعون والّذين من قبلهم كقوم نوح وعادٍ وثمود . لقد كذّب كلٌّ أولئك بآيات الله تعالى فأخذهم الله تعالى بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر والله شديد العقاب . فعلى الكافرين بآي الذّكر الحكيم الجاحدين نبوّة محمّد بن عبد الله ﷺ أن يعودوا إلى جادّة الصّواب وإلاّ فالسّنّة ماضية ووعد الله تعالى لا يتخلّف .

والملاحظ أنّ الآية الكريمة تنصّ على آل فرعون بصريح اللّفظ . والمعروف أنّ فرعون وقومه كذّبوا بآيات الله تعالى التّسع الّتى خصّ الله تعالى بها موسى عليه السّلام. وقد جاء فى سورة الإسراء[1] قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آياتٍ بيّنات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنّى لأظنك ياموسى مسحوراً » وقد نصّت سورة الأعراف على هذه الآيات التّسع . ومن هذه الآيات العصا واليد . قال تعالى[2] : « فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للنّاظرين » ومن هذه الآيات السّنون ونقص الثّمرات . قال تعالى[3] : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسّنين ونقصٍ من الثّمرات لعلّهم يذّكّرون » وهذه هي تمام الآيات التّسع[4] : « فأرسلنا عليهم الطّوفان والجراد والقُمّل والضّفادع والدّم آياتٍ مفصّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين » .

ومن سور القرآن الكريم الّتى فصلت ما حلّ بفرعون وآله من عذاب سورة غافر . لقد جاء على لسان الرّجل المؤمن من آل فرعون والّذى كان يكتم إيمانه قوله تعالى[5] : « وقال الّذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعادٍ وثمودَ والّذين من بعدهم . وما الله يريد ظلماً للعباد » وجاء عن هذا الرّجل المؤمن قوله تعالى[6] : « فوقاه الله سيّئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوءُ العذاب . النّار يُعْرَضون عليها غدوّاً وعشيّاً ويوم تقوم السّاعة أَدْخِلوا آل فرعون أشدَّ العذاب » .

---

(١) الآيـة ١٠١ .
(٢) سورة الأعراف ١٠٧ ، ١٠٨ .
(٣) سورة الأعراف ١٣٠ .
(٤) سورة الأعراف ١٣٣ .
(٥) سورة غافر ٣٠ ، ٣١ .
(٦) سورة غافر ٤٥ ، ٤٦ .

﴿١٢﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ

سبب النّزول

عن ابن عبّاس قال : لمّا أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدرٍ فقدم المدينة جمع يهود فى سوق بنى قينقاع فقال : يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً فقالوا : يا محمّد : لاتغرّنّك نفسك أنّك قتلت نفراً من قريش كانوا أغمارا لايعرفون القتال . إنّك والله لوقاتلتنا لعرفت أنّا نحن النّاس وأنّك لم تأت مثلنا فأنزل الله عزّ وجلّ فى ذلك من قولهم : قل للّذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنّم وبئس المهاد . إلى قوله : لأولى الأبصار[1] .

تحشرون : تجمعون فتجلبون إلى جهنّم[2] .

وبئس المهاد : وبئس الفراش جهنمّ الّتى تحشرون إليها[3] .

يأمر ربّ العزّة حبيبه المصطفى ﷺ بأن يقول لكفّار يهود ، المتعاطفين مع إخوانهم كفّار مكّة الّذين أذلّهم الله يوم بدر ، المبغضين للرّسول ﷺ وللمسلمين ، المتحرّشين بهم المؤذين لهم ، بأنّهم سيُغلبون فى حربهم للإسلام والمسلمين وسيتقتلون ويؤسرون وتضرب عليهم الجزية ، كما غلب كفّار مكة فى بدر ، وسيحشرون إلى جهنّم وسيساقون إليها كما حُشر كفّار مكّة وسيقوا . وتقرر الآية الكريمة أنّ جهنّم بئس المهاد وبئس الفراش .

---

[1] تفسير الطّبريّ ٣ / ١٢٨ وتفسير ابن كثير ١ / ٣٥٠ .

[2] تفسير الطّبريّ ٣ / ١٢٩ .

[3] تفسير الطّبريّ ٣ / ١٢٩ .

﴿١٣﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ

الآية الكريمة مرتبطة بسابقتها فقد عرفنا أنّ سبب نزولهما واحد ، وعليه فالخطاب موجّه إلى كافرى يهود من سكّان المنطقة آنذاك .

آية : عبرةٌ ودلالة وعلامة على صدق ما يقال .

رَأْيَ العين : مصدر رأيته . يقال : رأيته رأياً ورؤيةً . ورأيت فى المنام رؤيا حسنةً غير مُجراة . يقال : هو مِنّى رأيَ العين ورأيُ العين بالنّصب والرّفع ، يراد حيث يقع عليه بصرى .....[1] .

تخاطب الآية الكريمة كفّار بنى إسرائيل الّذين تطاولوا بألسنتهم على المسلمين بقيادة المصطفى ﷺ بعد نصر الله تعالى لهم فى بدر ، وتنبّه القوم إلى وجوب معرفة أقدارهم حقيقةً ومعرفة تأييد الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ وللفئة المؤمنة . فهاهم أولاء أمام آية على صدق ما يقال لهم وعلامةٍ على كون النّصر إنمّا هو من عند الله تعالى وحده لاشريك له ، ودليلٍ محسوسٍ على نصر الله تعالى رسلَه والّذين آمنوا فى الحياة الدّنيا ويوم يقوم الأشهاد . فهاتان فئتان التقتا للقتال ، أمّا الفئة الأولى فتشهد ألاّ إلهَ إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله ، فهي تقاتل فى سبيل الله تعالى بقيادة المصطفى ﷺ ، وأمّا الفئة الأخرى فكافرة لنعم الله تعالى ، جاحدة لآلائه ، محاربة لدينه جلّ وعلا ، مكذّبة لرسوله ﷺ ، منكرة لقرآنه المجيد . ومع كون الطّائفة المؤمنة قلّة فعددهم زهاء ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً[2] بينما عدد كفّار مكّة بين التّسعمائة والألف[3] فقد نصر الله تعالى عبده ،

---

(١) تفسيرُ الطبرى ٣ / ١٣٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٣٥٠ وتفسير الطّبريّ ٣ / ١٣١ .

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٣٥٠ وتفسير الطبرى ٣ / ١٣١ .

بأعزّ جنده . ومن مظاهر تأييد الله تعالى رسوله والمؤمنين أنّ الكافرين كانوا يرون المسلمين مثليهم فى العدد وفى العدّة . وهذا النّوع من الرّؤية يمثّل مرحلةً بعينها ، وذلك حينما اشتدّ القتال بين الفريقين وحمي الوطيس . وقد سبق هذه المرحلة من التّأييد مرحلة أخرى مهيّئة للمرحلة التّالية وموطّئةٌ لها .

فكي تقوى قلوب المسلمين على القتال أرى الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم المشركين فى المنام قلّة ، وأرى المسلمين بقيادة المصطفى ﷺ حينما بوّأ النّبيّ ﷺ للمؤمنين مقاعد للقتال ، أرى الله سبحانه وتعالى المسلمين المشركين قِلّةً للحكمة ذاتها .

وفى المقابل أرى الله سبحانه وتعالى المشركين المغرورين بقوّتهم المخدوعين بسلاحهم وعتادهم ، أراهم المسلمين قلّة كي يستهين المشركون ، وكي يقبلوا على القتال ويقدموا على النّزال . وقد جاء في حقّ هذا النّوع من التأييد قوله تعالى فى سورة الأنفال[1] : « إذ يريكهم الله فى منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكنّ الله سلّم ، إنّه عليم بذات الصّدور . وإذيريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ويقلّلكم فى أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً . وإلى الله تُرْجع الأمور » .

وقد تلا هذا النّوع من التّأييد فى هذه المرحلة المبكّرة تأييد من نوعٍ آخر وذلك حينما نشب القتال ونصر الله تعالى عبده وأيّد جنده بالملائكة . وقد جاء فى سورة الأنفال[2] قوله تعالى : « إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أنّى ممدّكم بألفٍ من الملائكة مردفين[3] وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النّصر إلاّ من عند الله ، إنّ الله عزيز حكيم . إذ يغشّيكم النُّعاس أَمنَةً منه وينزّل عليكم من السّماء ماءً ليطهّركم به ويذهب عنكم رجز الشّيطان وليربط على قلوبكم ويثبّت به الأقدام . إذ يوحى ربّك إلى الملائكة أنّى معكم فثبّتوا الّذين آمنوا ، سأُلقى فى قلوب الّذين كفروا الرّعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلَّ بنان . ذلك بأنّهم شاقّوا الله ورسوله . ومن يشاقق الله ورسوله فإنّ الله شديد العقاب . ذلكم فذوقوه وأنّ للكافرين عذابَ النّار » .

---

(١) الآية ٤٣ ، ٤٤ .　　(٢) الآيات ٩ - ١٤ .

(٣) مردفين متتابعين يردف بعضهم بعضاً . الجلالين .

وقد ارتفع الوعد إلى ثلاثة آلافٍ من الملائكة ثمّ إلى خمسة آلاف ، كما في سورة آل عمران . قال تعالى[1] : « ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلّة ، فاتّقوا الله لعلّكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدّكم ربُّكم بثلاثة آلافٍ من الملائكة مُنْزَلين . بلى إن تصبروا وتتّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين[2] وما جعله الله إلاّ بُشْرى لكم ولتطمئنّ قلوبكم به ، وما النّصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيم » .

ونستطيع أن نفهم أنّه فى هذه المرحلة التّالية من التّأييد السّماويّ رأى المشركون المسلمين مثليهم رأي العين وحيث وقع عليهم بصرهم .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى يؤيّد بنصره من يشاء ويقوّى بعونه من يستحقّ ذلك ، وأنّ فى ذلك لعبرة وعظةً لأولى الأبصار والبصائر النيّرة .

---

(١) سورة آل عمران ٢٣ – ١٢٦ .

(٢) مسوّمين ، بكسر الواو وفتحها أي مُعْلَمين . وقد صبروا وأنجز الله وعدهم بأن قاتلت معهم الملائكة على خيل بلق عليهم عمائم صفر وبيض أرسلوها بين أكتافهم . الجلالين . السيرة النبوية ج ٢/ ٩٢

مَتَاعُ الدُّنيا زائل ونعيم الآخرة مقيم

(الآيات ١٤-١٧)

﴿١٤﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ
وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ

الشّهوات : ما تشتهيه النفّس وتدعو إليه(١) .

القناطير : قد اختلف المفسّرون فى مقدار القنطار على أقوال . وحاصلها أنّه المال الجزيل كما قاله الضّحّاك وغيره(٢) .

القناطير المقنطرة : المال الكثير بعضه على بعض(٣) .

والخيل المسوّمة هي الرّاعية ، أو الحسان ، أو المُعْلَمة أو المعدّة للجهاد(٤) قال أبو جعفر : أولى هذه الأقوال بالصّواب فى تأويل قوله : والخيل المسوَّمة المُعْلَمة بالشّيات الحسان الرّائعة حسناً من رآها . لأنّ التّسويم فى كلام العرب هو الإعلام . فالخيل الحسان معلمة بإعلام الله إيّاها بالحسن من ألوانها وشياتها وهيآتها(٥) .

والأنعام جمع نَعَم وهي الأزواج الثّمانية الّتى ذكرها فى كتابه(٦) من الضّأن والمعز والبقر والإبل(٧) .

والحرث : الزّرع(٨) .

والله عنده حسن المآب : يعنى حسن المرجع(٩) عن السّدّيّ والله عنده حسن المآب بقول : حسن المنقلب ، وهي الجنّة . وهو مصدر ، على مثال مفعل من قول القائل آب الرّجل إلينا إذا رجع فهو يئوب إياباً وأوبةً وأيبةً ومآبا(١٠) .

---

(١) الجلالين .
(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٣٥١ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٣٥ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٣٥ ، ١٣٦ .
(٥) تفسير الطبري ٣ / ١٣٦ .
(٦) فى الآيتين الكريمتين ١٤٣ ، ١٤٤ من سورة الأنعام .
(٧) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٣٦ .
(٨) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٣٧ .
(٩) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٣٧.
(١٠) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٣٧ .

هذه الآية الكريمة الّتى تتحدّث عن تزيين الله سبحانه وتعالى للنّاس حبّ الشّهوات ، تجيء إثر الحديث عن كفّار بنى إسرائيل . والمعروف أنّ اليهود اتخّذوا الدّنيا غاية وُكْدِهِم . ويتجلّى فى الآية مظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم فى ترتيب مفردات الشّهوات ترتيباً معجزاً يراعى عمق الشّهوة من ناحية واحتمال تحقّقها والحصول عليها من ناحيةٍ أخرى . لقد ابتدأ الحديث بالنّساء لأنّ ميل كلّ من الجنسين إلى الآخر فطرىّ ، ولأنّ كلاً من الزّوجين بمثابة اللّباس للآخر ، ولكّنه لباس من نوع خاصّ إذ أنّه يصون على صاحبه طهره وعفافه . وإنّ البنين ثمرة طبيعيّة للزّواج ، هذا إلى كون البنين من زينة الحياة الدّنيا وقد قال تعالى[1] : « المال والبنون زينة الحياة الدّنيا » وبسبب العلاقة الوثيقة بين الذّرّيّة وبين الزّواج تقدّم فى الآية الكريمة ذكر البنين على القناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة . وبالنّظر إلى الشّهوات الّتى يحبّها النّاس بعد الزّواج والحصول على الذّرّيّة ، يبرزُ حبّ المال شديداً . وتقدّم الآية الكريمة فى الذّكر أشد النّقدين حبّاً « من الذّهب والفضّة » ومعروف أنّ الإنسان لحبّ الخير ، أي المال ، لشديد ، كما نصّ على ذلك القرآن الكريم ، ولهذا تنصّ الآية الكريمة على القناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة ، والمال الكثير بعضه على بعض من هذين النّقدين فى المقام الأوّل ، ويلحق بهما سواهما من الأموال والتجارة والمساكن وما إلى ذلك . وتتطلّع النّفس وراء ذلك إلى الرّكوب وإلى الغنى . ويكون الحديث عن الخيل المسوّمة الّتى تملأ بجمالها العين رُواءً والقلب بهجةً والنّفس سروراً . وعن الأنعام من ضأنٍ وماعزٍ وإبلٍ وبقر . ويلاحظ تقديم الخيل المسوّمة لميل النّفس الشّديد إليها بالقياس إلى الأنعام . وحينما يحصل النّاس على الخيل المسوّمة والأنعام يقوى فى نفوسهم حبّ الأرض المتّخذة للغراس والزّراعة لأنّها بالإضافة لكونها نزهةً للنّظر ومستراحاً للفؤاد ، مصدر رزقٍ للإنسان وللحيوان . وقد جاء فى سورة النّحل عن الأنعام قوله تعالى[2] : « والأنعامَ خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تُريحون وحين تَسْرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلاّ بشقّ الأنفس ، إنّ ربّكم لرءوف رحيم . والخيلَ والبغالَ والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لاتعلمون . وعلى الله قصد السّبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » .

---

(١) سورة الكهف ٤٦ .

(٢) سورة النّحل ٥ – ٩ .

إنّ كلّ هذه الشهوات زهرة الحياة الدّنيا وزينتها الفانية ونعيمها الزّائل. وإنّ الله سبحانه وتعالى عنده وحده لاشريك له حسن المآب ، المرجع والمنقلب والثّواب ، فى الجنّة الّتى أعدّها الله تعالى للمتّقين الّذين تتحدّث عنهم الآية الكريمة التّالية ، والمعروف أنّ فى الجنّة ما لاعين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وينبغي أن نقرّر أنّ حبّ الشّهوات الّذى زينّه الله تعالى لنا ، حينما نريد به وجه الله تعالى بأن نريد من الزّواج الإعفاف وكثرة الأولاد تحقيقاً لقوله ﷺ : تزوّجوا الودود الولود فإنّى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة[1] وحينما نكون أغنياء بقصد إعداد ما نستطيع من قوّة ، تنفيذاً لأمره جلّ وعلا لنا ، كي نرهب عدوّ الله وعدوّنا ، فإنّا بإذن الله تعالى مثابون على كلّ ما نأتى ممّا زيّنه الله تعالى لنا من حبّ الشّهوات . وإنّ الوزر كلّ الوزر حينما نبدّل نعمة الله تعالى كفراً ونحلّ قومنا دار البوار والعياذ بالله .

---

(١) سورة النّحل ٥ - ٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٣٥١ .

﴿١٥﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ

بَيَّنَتِ الآية السّابقة أن أنواع الشّهوات الّتي زُيّنت للنّاس بمثابة متاع الحياة الدّنيا ، وإذا كانت الحياة الدّنيا ذاتُها زائلةً فمن باب أَوْلى متاعها . ويُفهَم من ذلك أنّ تلك الشّهوات لايصحّ لعاقلٍ أن يجعلها هدفاً له ، وهذا المعنى يعّمقه التذييل فى الآية الكريمة : « والله عنده حُسْن المآب » وإنّ المعنى العميق الّذى نبهّت عليه الآية الكريمة ، قد صرّحت به هذه الآية الكريمة التّالية . فها هو ذاربّ العزّة يأمر حبيبه المصطفى ﷺ بأن يقول للنّاس مستفهماً : أُؤنَبِّئكم بخيرٍ من ذلكم؟ أأخبركم بما هو أفضل من ذلك النّعيم الزّائل ؟ وتجيب الآية الكريمة على الاستفهام . فللّذين اتّقوا ربّهم جلّ وعلا بعمل الصّالحات واجتناب السّيّئات واتّخذوا وقايةً من النّار بأعمالهم الصّالحة الّتى أرادو بها وجه ربّهم الأعلى ، جنّاتٌ تجرى من تحتها الأنهار ، وقد نصّت سورة محمّد ﷺ على أنهار الماء غير الآسن ، وأنهار اللّبن الّذى لم يتغيّر طعمه ، وأنهار الخمر اللّذة للشاربين ، وأنهار العسل المصفّى . وهم خالدون في جنّات النّعيم ، ومعهم أزواج مطهّرة من كلّ أذىً يكون بنساء أهل الدّنيا ، ويتوّج كلّ ذلك برضا الله تعالى عن أولئك المتّقين « أي يحلّ عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبداً ، ولهذا قال تعالى فى الآية الأخرى الّتي فى براءة : ورضوان من الله أكبر . أي أعظم ممّا أعطاهم من النّعيم المقيم »[1] .

والله سبحانه وتعالى بصيرٌ بالعباد ، يعلم المفسد من المصلح ويجازى كلاًّ وفق نيّته وعمله ، فلا يخفى على الله تعالى شيء فى الأرض ولا فى السّماء .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣٥٢ .

﴿١٦﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ

الّذين : يحتمل وجهين من الإعراب ، الخفض على الرّدّ على الّذين الأولى ، والرّفع على الابتداء ، إذ كان فى مبتدأ آيةٍ أخرى غير الّتى فيها الّذين الأولى ، فيكون رفعها نظير قول الله عزّ وجلّ : إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم . ثمّ قال فى مبتدأ الآية الّتى بعدها : التّائبون العابدون . ولو كان جاء ذلك مخفوضاً كان جائزاً[1] .

إنّ المتقين الّذين وعدهم الله تعالى بالثّواب الجزيل كفاء أعمالهم الصّالحة الّتى يعملونها وقايةً بينهم وبين النّار ، يضمّون إلى الفعل القول . فهاهم أولاء يدعون الله تعالى من أعماقهم أن يغفر لهم ذنوبهم وأن يقيهم عذاب النّار يوم لاينفع مال ولا بنون . إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم .

---

[1] تفسير الطبري ٣ / ١٣٨ .

﴿١٧﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ
وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ

الأسحار جمع السَّحَر بتحريك الحاء ، قبيل الصُّبح[1] .

تنصّ الآية الكريمة على خمسةٍ من نعوت المتّقين الّذين يقولون ربّنا إنّنا آمنّا . ويلاحظ أنّ النّعوت جاءت مخفوضة ، مراعاةً للّذين من القول : « الذين يقولون » ودليلاً على أنّ موضع « الذين » الخفض مراعاةً للخفض فى قوله تعالى « للّذين اتّقوا » .

وتبدأ النّعوت بالصّبر دليلاً على أهميّة الصّبر لكونه عماد كلّ الطّاعات الّتى يقوم بها المرء . والمراد بالصّبر الصّبر على الطّاعات وعن المعاصى وعلى البلاء . والمراد بالصّدق صدق الأقوال وصدق الأفعال الموافقة للأقوال الّتى عبرّ بها المتّقون عن إيمانهم بما أنزل الله تعالى واتّباعهم الرّسول . والمراد بالقانتين الخاشعون فى عباداتهم الطّائعون الخاضعون . والمراد بالمنفقين المنفقون فى السّرّاء والضراء على أنفسهم وعلى من يعولون والمؤتون الزّكاة والمتصدّقون والمنفقون فى كلّ أوجه البرّ . وإذا كان من صفات المتّقين قَبْلُ أنّهم « يقولون ربّنا إنّنا آمنّا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النّار » فإنّ صفة استغفارهم لله تعالى باستمرار من أهمّ نعوتهم ، لأنّهم على علمٍ تامّ بضعفهم وبتقصيرهم فى جنب الله تعالى وبكون أعمالهم الصّالحة إنمّا يقبلها جلّ وعلا بفضله إذا شاء وبكون ذنوبهم لايغفرها إلاّ هو جلّ وعلا . لكلّ ذلك هم يكثرون من الاستغفار ، ثمّ هم وراء ذلك يكثرون من الاستغفار فى الأوقات الّتى هي مظنّة كونهم أكثر قرباً منه جلّ وعلا ألا وهي أوقات الأسحار الّتى يوشك أن ينتهي عندها تجافى جُنوب المتّقين عن المضاجع ويبدأ عندها وقت صلاة الفجر . إنّ مثل هذا الوقت مظنّة صفاء النّفس الشديد ونقاء القلب الأكيد وإقبال العبد على بارئه المبدىء المعيد الفعّال لما يريد .

---

(١) القاموس المحيط « سحر » .

قيل إنّ يعقوب عليه السّلام لمّا قال لبنيه : سوف أستغفر لكم ربىّ . أنّه أخّرهم إلى وقت السّحر . وثبت فى الصّحيحين وغيرهما من المسانيد والسُّنن من غير وجه عن جماعةٍ من الصّحابة أنّ رسول الله ﷺ قال : ينزل الله تبارك وتعالى فى كلّ ليلةٍ إلى السّماء الدّنيا حين يبقى ثلث اللّيل الأخير فيقول : هل من سائلٍ فأعْطِيه ؟ هل مِنْ داعٍ فأستجيب له ؟ هل من مستغفرٍ فأغْفِرَ له . الحديث[1] .

---

[1] تفسير ابن كثير ١ / ٣٥٣ .

مسلمون لربّ العالمین و کافرون و جزاؤھم

(آیات ۱۸-۲۷)

﴿١٨﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ

من الأمور الّتى تُعْنى بها السّورة الكريمة توحيدُ الله تعالى وإفراده جلّ وعلا بالعبادة ردّاً على وفد نصارى نجران ومن لفّ لفهم مِنَ الّذين غالوا فى عيسى ابن مريم عليه السّلام ، ودورُ أولى العلم الرّاسخين فيه الإيجابيُّ فى كلّ قضيّة مهمّة ، كدورهم بشأن المتشابه من القرآن واعتقادهم أنّ كلاً من المحكم والمتشابه موحًى به من الله تعالى ، وكدورهم بشأن توحيد الله تعالى المتمثّل فى إيمانهم الرّاسخ بقضيّة التوحيد وإعلانهم على الملأ الشّهادة بذلك . وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تُعْنى بهاتين المسألتين الأخيرتين مسألة التّوحيد والإعلان .

إنّ الله سبحانه وتعالى يشهد ، وكفى بالله شهيداً ، ومن أصدق من الله تعالى حديثاً وقيلا ، بأنّه لا إلٰه معبود بحقّ إلاّ هو وحده جلّ وعلا لاشريك له ، وإنّ الملائكة المقربين الّذين لايعصون الله تعالى ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ليشهدون بذلك أيضاً ، وكذلك أولو العلم الصّحيح الراسخون فيه .

وتتوّج شهادة الله تعالى بهذه العبارة الحاليّة « قائماً بالقسط » . فالله سبحانه وتعالى هو القائم بالعدل وهو القائل بالحقّ وهو الشّاهد بالقسط وهو الّذى يلى العدل بين خلقه[1] وإذا كان محور صدر الآية مقرّراً أنّه لا إلٰه إلاّ الله ، فإنّ عجزها معمّق لهذا المعنى ومؤكد له « لا إلٰه إلاّ هو العزيز الحكيم » إنّه لا إلٰه إلاّ الله تعالى وحده لاشريك له ، العزيز فى مُلكه الحكيم فى صنعه . عن الزّبير بن العوّام قال : سمعت النّبيّ ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية : شهد الله أنّه لا إلٰه إلاّ هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم . وأنا على ذلك من الشّاهدين ياربّ[2] .

---

[1] تفسير الطبرىّ ٣ / ١٤٠ .

[2] تفسير ابن كثير ١ / ٣٥٣ .

﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ

الإسلام هو الانقياد بالتّذلّل والخشوع . والفعل منه أسلم بمعنى دخل فى السلم ، كما يقال : أقحط القوم إذا دخلوا فى القحط وأربعوا إذا دخلوا فى الرّبيع . فكذلك أسلموا إذا دخلوا فى السّلم وهو الانقياد بالخضوع وترك الممانعة[1] .

تبيّن الآية الكريمة أنّ الدّين المتقبّل عند الله تعالى هو الإسلام، أي توحيد الله تعالى ، والاستسلام له والخضوع ، والخلوص من الشّرك . والإسلام بهذا المعنى هو الدّين الّذى بعث الله تعالى به رسله ابتداءً بنوح عليه السّلام ، وانتهاءً بمحمّد ﷺ ، الّذى نسخت رسالته سائر الرّسالات السّابقة . وتبيّن الآية كذلك أنّ الّذين أوتوا الكتب السّماوية السّابقة ، وبخاصّةٍ اليهود والنصّارى ، إنمّا اختلفوا بعد ما جاءهم العلم الحقّ من الله تعالى . ولم يختلفوا لأنّ ثمّة داعياً مبرّراً للاختلاف ولكن اختلفوا بسبب بغي بعضهم على بعض ، صراعاً على حطام الدّنيا الزّائل وحرصاً على متاعها الفانى . وتبيّن الآية الكريمة أخيراً أنّ من يكفر بآيات الله تعالى من بعد ما جاءته فإنّ الله سبحانه وتعالى سريع الحساب ولا يفوته مطلوب .

والحقيقة أنّ هذه الجزئية الكريمة « إنّ الدّين عند الله الإسلام » بحاجةٍ منّا إلى أن نقف عندها وقفةً متأنّية .

لقد بعث الله تعالى رسله برسالة الإسلام ورسالة التّوحيد . ونستطيع أن نفهم أنّ ذرّيّة آدم عليه السّلام ظلّت حيناً من الدّهر متمسّكةً بعقيدة التّوحيد ، وكانت أمّةً واحدةً مسلمةً لله ربّ العالمين ثمّ اختلفت فبعث الله سبحانه وتعالى النّبيّين مبشّرين

---

(١) تفسير القرطبي ٣ / ١٤١ .

ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ . وقد جاء فى سورة البقرة[1] قوله تعالى : « كان النّاس أمةً واحدةً فبعث الله النّبيّين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين النّاس فيما اختلفوا فيه . وما اختلف فيهِ إلاّ الّذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغياً بينهما فهدى الله الّذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه . والله يهدى من يشاء إلى صراطٍ مستقيم » . وأقرب رسل الله تعالى زمناً من خاتم النبيّين ، محمّد بن عبد الله ﷺ ، موسى وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام . وقد أخذ الله سبحانه وتعالى من النبيّين ميثاقهم ، وأممهم تبعٌ لهم فى أخذ الميثاق لئن بُعث محمّد بن عبد الله ﷺ وهم أحياء ليؤمننّ به ولينصرنّه . وقد جاء فى سورة آل عمران[2] قوله تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق النّبيّين لما آتيتكم من كتابٍ وحكمةٍ ثمّ جاءكم رسولٌ مصدّقٌ لما معكم لتؤمننّ به ولتنصُرنّه . قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشّاهدين . فمن تولّى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » . وقد بشّر كلٌّ من التّوراة والإنجيل بمحمّد ﷺ . وقد جاء فى معرض الثّناء على المؤمنين بمحمّد ﷺ من أهل الكتاب قوله عزّ من قائل فى سورة الأعراف[3] : « ..... ورحمتى وسعت كلّ شيءٍ فسأكتبها للّذين يتّقون ويؤتون الزّكاة والّذين هم بآياتنا يؤمنون . الّذين يتّبعون الرّسول النّبيّ الأمّيّ الّذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التّوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطّيّبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصْرَهم والأغلال الّتى كانت عليهم فالّذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النّور الّذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » .

وقد بشّر عيسى عليه السّلام بمحمّد ﷺ وجاء فى سورة الصّفّ[4] قوله تعالى : « وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنّى رسول الله إليكم مصدّقاً لما بين يديّ من التّوراة ومبشّراً برسولٍ يأتى من بعدى اسمه أحمد . فلمّا جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحرٌ مبين . ومن أظلم ممّن افترى على الله الكذب وهو يُدْعى إلى الإسلام . والله لايهدى القوم الظّالمين » . كما أثنت سورة القصص على مؤمنى أهل الكتاب بمحمّد ﷺ .

---

(١) الآية ٢١٣ .
(٢) الآية ٨١ ، ٨٢ .
(٣) الآية ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٤) الآية ٦ ، ٧ .

قال تعالى[1] : « الّذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يُتْلى عليهم قالوا آمنّا به إنّه الحقّ من ربنّا إنّا كنّا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السّيّئة وممّا رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا اللّغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لانبتغى الجاهلين » .

وإنّ واجب المسلمين أن يحسنوا الدّعوة إلى الدّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده بحسن العمل والقول. وفى حال إصرار القوم على التمسّك بمعتقدهم نحن نخاطبهم بقوله تعالى[2] : « قل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشركَ به شيئاً ولا يتخّذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولَّوْا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون » قال تعالى[3] : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السّماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً وإليه يُرْجعون . قل آمنّا بالله وما أُنْزِل علينا وما أُنْزِل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيّون من ربّهم لانفرّق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقْبَلَ منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » وقال تعالى : « إنّ الدّين عند الله الإسلام » وقال تعالى[4] : « اليوم أكملتُ لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

---

(١) الآيات ٥٢ – ٥٥ .
(٢) سورة آل عمران ٦٤ .
(٣) سورة آل عمران ٨٣ – ٨٥ .
(٤) سورة المائدة ٣ .

﴿٢٠﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ
وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ

يتوجّه الخطاب فى هذه الآية الكريمة إلى المصطفى ﷺ . فإن حاجّك أهل الكتاب ومن لفّ لفّهم وخاصموك فى القول : « إنّ الدّين عند الله الإسلام » فقل لهم أيّها الرّسول الكريم أسلمت وجهي لله ومَنِ اتّبعن بتوحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة وحده لاشريك له والانقياد له والخلوص من الشّرك . وقل أيّها الرّسول الكريم للّذين أوتوا الكتاب من اليهود والنّصارى والأمّيين من مشركى العرب الّذين لاكتاب لهم[1] والّذين لايكتبون[2] أأسلمتم . والمراد الأمر أي أسلموا . « كما قال جلّ ثناؤه : ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصّلاة فهل أنتم منتهون يَعْنى انتهوا »[3] إنّ القوم إذا أسلموا بأن شهدوا ألاّ إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله فقد اهتدوا إلى الصراط المستقيم صراط الّذين أنعم الله تعالى عليهم ، وإنّ تولّوا وأعرضوا وانصرفوا فإنّما عليك أيّها الرّسول الكريم البلاغ والبلاغ فقط ، والله سبحانه وتعالى بصير بالعباد فمن شاء هداه ومن شاء أضلّه « لايُسْأل عمّا يفعل وهم يسألون »[4] « وهذه الآية وأمثالها مِنْ أصرح الدّلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دلّ عليه الكتاب والسّنّة فى غير ما آيةٍ وحديث ، فمن ذلك قوله تعالى : « قل يا أيّها النّاس إنّى رسول الله إليكم جميعاً . وقال تعالى : تبارك الّذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً . وفى الصّحيحين وغيرهما ممّا ثبت تواتره بالوقائع المتعدّدة أنّه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف بنى آدم من عربهم وعجمهم ،

---

(١) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٤٣ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٤٤ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٤٣ .
(٤) سورة الأنبياء ٢٣ .

كتابيّهمْ وأمّيّهمْ امتثالاً لأمر الله له بذلك . وقد روى عبد الرّزّاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : والّذى نفسى بيده لا يسمع بى أحدٌ من هذه الأمّة يهوديّ ولا نصرانيّ ومات ولم يؤمن بالّذى أرسلت به إلاّ كان من أهل النّار . رواه مسلم »[1] .

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣٥٤ .

﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

على الرّغم من أمر بنى إسرائيل بأن يسلموا لله ربّ العالمين ويصدّقوا برسالة محمّد بن عبدالله ﷺ لأنّ القول فى الآية الكريمة السّابقة : « أأسلمتم » بمعنى أسلموا بشملهم فى المقام الأوّل لأنّهم أهل كتابٍ سماويّ ولأنّهم من سكّان المنطقة ، فإنّهم كفروا . وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تبيّن عراقتهم فى الكفر والضّلال والطّغيان ، وتبيّن العذاب الأليم الّذى ينتظرهم وينتظر أمثالهم فى الدّنيا والآخرة . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الّذين يكفرون بآيات الله تعالى وفى مقدّمتها آي الذّكر الحكيم ، ويقتلون النّبيّين ظلماً وعدواناً ، ويقتلون الّذين يأمرونهم بالعدل من أتباع رسل الله تعالى إليهم ، يبشّرهم ربّهم على لسان المصطفى ﷺ تهكّماً بهم واستهزاءً ، بعذابٍ أليم فى الدّنيا والآخرة . « عن أبى عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله أيّ النّاس أشدّ عذاباً يوم القيامة ؟ قال : رجلٌ قتل نبيّاً أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر . ثمّ قرأ رسول الله ﷺ : إنّ الّذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النّبيّين بغير حقّ ويقتلون الّذين يأمرون بالقسط من النّاس فبشّرهم بعذابٍ أليم الآية . ثمّ قال رسول الله ﷺ : يا أبا عبيدة : قتلت بنو إسرائيل ثلاثةً وأربعين نبيّاً من أوّل النّهار فى ساعةٍ واحدة . فقام مائةٌ وسبعون رجلاً من بنى إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعاً من آخر النّهار من ذلك اليوم ، فهم الّذين ذكر الله عزّ وجلّ »[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣٥٥ وتفسير الطّبري ٣ / ١٤٤ .

﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ

مِنَ البيّن أنّه لانبّي بعد محمّد ﷺ الّذى عصمه الله تعالى من النّاس ، وبذلك يصحّ كفر القوم بآيات الله تعالى وقتل الّذين يأمرون بالقسط من النّاس . ويستوى فى العقاب من الله تعالى بنو إسرائيل وسواهم . وإنّ ربّ العزّة ليبشّر الكافرين تهكّماً بهم بعذاب أليم . وها هي ذى الآية الكريمة الّتي نحن بصددها تعمّق العذاب الأليم فى الآية الكريمة السّابقة بتبيين أنّ القوم قد حبطت أعمالهم الصّالحة فى الدّنيا من برّ وصلة رحم وإغاثة ملهوف وما إلى ذلك وبطل ثواب تلك الأعمال فى الآخرة . وليس للقوم من ناصر يحول بينهم وبين عذاب الله تعالى الواقع بهم لامحالة .

ومن البيّن أنّ هذا الموقف المهين يوم القيامة والعذاب الأليم من نصيب الّذين يقتلون الّذين يأمرون بالقسط من المسلمين الّذين يشهدون ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله والّذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله تعالى .

﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ

تنصّ الآية الكريمة على مظهرٍ من مظاهر كفر بنى إسرائيل نعم الله تعالى ، وآياته ل وعلا . ويخاطَب المصطفى ﷺ ، وأمّته تبعٌ له فى ذلك ، فى صيغةٍ استفهاميّة نوقة : ألم تر ؟ بمعنى : ألم تعلم وتنظر إلى بنى إسرائيل الّذين أوتوا نصيباً من الكتاب متثّل فى التّوراة الّتي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام والّتى فيها حكم الله تعالى . بنى إسرائيل يزنى منهم اثنان ، ويتحاكمون إلى المصطفى ﷺ ، ولا يرضون بحكمه لله عليهما بالرّجم لأنّهما محصنان ، ويجىء المصطفى ﷺ بالتّوراة وفيها الحكم بالرّجم رحمان ويغضب بنو إسرائيل . إنّ القوم يُدْعَوْن إلى كتاب الله تعالى ، إلى القرآن الكريم حكم بينهم ثمّ يتولّى فريق منهم وينصرف وهم مُعْرضون . وإنّ انصرافهم عن القرآن كريم امتداد لانصرافهم عن التّوراة[1] وقد تحدّثت سورة المائدة فى هذا الشأن حديثاً ستفيضاً . قال تعالى[2] : « يا أيّها الرّسول لايَحْزُنك الّذين يسارعون فى الكفر من ين قالوا آمنّا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الّذين هادوا سمّاعون للكذب سمّاعون م آخرين لم يأتوك يحرّفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن توه فاحذروا . ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً . أولئك الّذين لم يرد الله أن هّر قلوبهم لهم فى الدّنيا خزيٌ ولم فى الآخرة عذاب عظيم . سمّاعون للكذب أكّالون سُحت . فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم . وإن تُعْرض عنهم فلن يضرّوك ئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إنّ الله يحبّ المقسطين . وكيف يحكّمونك ندهم التّوراة فيها حكم الله ثمّ يتولّون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين » .

---

[1] انظر تفسير الطبري ٣ / ١٤٥ ، ١٤٦ .

[2] سورة المائدة ٤١ - ٤٣ .

﴿٢٤﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ

تبيّن الآية الكريمة أنّ تولّى بنى إسرائيل وإعراضهم عن الرّضا بحكم الله تعالى كانا بسبب زعمهم أنّهم لن تمسّهم النّار يوم القيامة إلاّ إيّاماً معدودات ، وهي أربعون يوماً ، وهنّ الأيّام الّتي عبدوا فيها العجل حينما ذهب موسى عليه السّلام إلى ميقات ربّه . وإنّ الّذى جرّأهم على هذا القول غير ذى الأساس والّذى غرّهم فى دينهم وثبّتهم على اعتقاهم الباطل وخدعهم عن حقائق أقدارهم ما كانوا يفترون على الله تعالى من الكذب والزّعم بأنّهم أبناء الله تعالى وأحباؤه[1] وقد جاء فى سورة المائدة النّصّ على هذا الزّعم ووجه الحقّ فيه . قال تعالى[2] : « وقالت اليهود والنّصارى نحن أبناء الله وأحبّاؤه ، قل فَلِم يعذّبكم بذنوبكم بل أنتم بشرٌ ممّن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء . ولله مُلْك السّماواتِ والأرض وما بينهما وإليه المصير » .

---

(١) انظر تفسير الطّبري ٣ / ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٢) سورة المائدة ١٨ .

﴿٢٥﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

تبيّن الآية الكريمة أنّ حال هؤلاء المفترين على الله الكذب أسوأ حال ، يوم القيامة لاريب فيه ، يوم تُوَفَّى كلُّ نفسٍ ما كسبت ، فتنال جزاء ما عملت من خير أو وهم لا يظلمون بنقص حسنة أو زيادة سيّئة ، بنقص ثواب أو زيادة عقاب .

﴿٢٦﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ ، وأمّته تَبَعٌ له فى ذلك بأن يقول : يا ألله[1] يا مالك الملك ، يا من له ملك الدّنيا والآخرة خالصاً دون غيره[2] فالله سبحانه وتعالى هو مالك الملك وحده لاشريك له . وما يأتى بعد ذلك يتمّشى مع هذه الملكيّة . فالله سبحانه وتعالى يؤتى الملك من يشاء من عباده بنصره وتأييده ، وينزع الملك ممّن يشاء بخذلانه وتسليط عدوّه عليه . ويتمشّى مع المُلْك المُعْطَى العزّ الممنوح . فالله سبحانه وتعالى يعزّ من يشاء . ويتمشّى مع المُلك المنزوع الذّلّ المُعْطى . فالله سبحانه وتعالى يذلّ من يشاء ، لاراد لقضائه ولا معقّب لحكمه . وإذا كان فى صدر الآية الكريمة تجاوزٌ للمُلك المملوك إلى المُلْك الممنوح والعزّ والمبذول ، فإنّ فى عجز الآية الكريمة تجاوزاً إلى كلّ خيرٍ بيده جلّ وعلا . والخير لفظةٌ جامعة لكلّ فضلٍ ممنوح لعبدٍ من عباده جلّ وعلا ، ابتداءً بالمال الوافر والرّزق الواسع . ويتمشّى مع الاتّجاه صعداً من الملك المطلق إلى الملك الممنوح أو الممنوع إلى الخير العميم بيده جلّ وعلا تقرير ما يعنيه هذا الاتجاه الصّاعد من الخير الشّامل بكونه جلّ وعلا قديراً على كلّ شىء ، هكذا فى صيغة المبالغة « فعيل » فالله سبحانه وتعالى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السّماء .

ومن البيّن أنّ حظّ الأمّة المحمّديّة من المُلك موفور باصطفاء خاتم الأنبياء والمرسلين رسولاً من الأميّين ، شريطة أن يقوم أتباع هذا الرّسول الكريم ، كما فعل الرّعيل لأوّل ، بتطبيق تعاليم القرآن الكريم وتعاليم سنّة أشرف الأنبياء والمرسلين وأن يصدقوا العهد كي يصدقهم جلّ وعلا الوعد .

---

(١) تفسير الطّبري ٣ / ١٤٧ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٤٨ .

﴿٢٧﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

تتجاوز هذه الآية الكريمة مِلْك المُلك إلى ملكوت السّماوات والأرض الّذى بيده حده جلّ وعلا . فمّما له علاقة بالسّماوات اللّيل والنّهار . إنّ لله تعالى وحده لاشريك القدرة على إيلاج اللّيل فى النّهار وإدخاله فيه وبذلك ينقص اللّيل ويطول النّهار على ساب اللّيل وبقدر ما نقص منه . وله القدرة على إيلاج النّهار فى اللّيل وبذلك ينقص نهار ويطول اللّيل على حساب النّهار وبقدر ما نقص منه . وهكذا دواليك طوال سنوات وطوال فصول السّنة الصّيف والشّتاء ، الرّبيع والخريف . وإنّ اللّيل والنّهار ليلٌ على ملك الله سبحانه وتعالى السّماوات بيده . وممّا له علاقةٌ بالأرض إخراج الحيّ ن الميّت وإخراج الميّت من الحيّ . ويلاحظ أنّ الإخراج يقابل الإيلاج بمعنى الإدخال . إنسان يخرج من النّطفة والنّطفة تخرج من الإنسان ، وكذلك الأنعام . والدّجاجة رج من البيضة والبيضة تخرج من الدجاجة . والنّبتة تخرج من الحبّة والحبّة تخرج من بتة . والنّخلة تخرج من النّواة والنّواة تخرج من النّخلة . والسّنبلة تخرج من الحبّ حبّ يخرج من السّنبل وهكذا . وإنّ خروج الحيّ من الميّت والميّت من الحيّ دليلٌ على لك الله سبحانه وتعالى الأرض بيده « فسبحان الّذى بيده ملكوتُ كلّ شيءٍ وإليه جعون »[1] .

ولمّا كان إخراج الحيّ من الميّت وإخراج الميّت من الحيّ شاملاً فى المقام الأوّل ثواب الّتى على الله رزقها[2] فقد تضمّن التّذييل هذا المعنى وتجاوزه إلى ما يتمشّى مع درة المطلقة للذّات العليّة الّتي بيدها ملكوت كلّ شيء . فالله سبحانه وتعالى يرزق من شاء بغير حساب لاراد لفضله ولا معقّب لحكمه جلّ علا .

---

[1] سورة يس ٨٣ .

[2] انظر هنا تفسير الطّبريّ ٣ / ١٥١ .

تحذیر المؤمنین من اتخاذ الکافرین أولیاء وکیفیۃ حب اللہ تعالی

(الآیات ۲۸-۳۲)

﴿٢٨﴾ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ

تقاة : « ابن الأعرابيّ : التُّقاة والتّقيّة والتّقوى والاتقاء كلّه واحد »(١) ابن عبّاس : التّقاة التّكلّم باللّسان وقلبه مطمئنٌّ بالإيمان(٢) وعن ابن عبّاس : فالتّقيّة باللّسان . من حُمِل على أمرٍ يتكلّم به وهو معصيةٌ لله فيتكلم به مخافة النّاس وقلبه مطمئنٌّ بالإيمان فإنّ ذلك لا يضرّه إنما التّقيّة باللّسان(٣) .

تبيّنّا من الآيات الكريمة السّابقة أنّ بنى إسرائيل مثلاً يكفرون بآيات الله تعالى ويقتلون النّبيّين بغير حقّ ويرفضون الانصياع لحكم الله تعالى الّذى يجدونه فى التّوراة ثم يكفرون بالقرآن الكريم وبالرّسول العظيم خاصّة وأنّ الله سبحانه وتعالى قد أكرم العرب فبعث فيهم رسولاً من أنفسهم من ذرّيّة إسماعيل عليه السّلام بينما كلّ الرّسل السّابقين من ذرّيّة إبراهيم عليه السّلام إنّما هم من ذرّيّة إسحاق عليه السّلام ، وفى تحوّل الرّسالة إلى ذرّيّة إسماعيل-عن ذريّة إسحاق تحوّل للرّسالة من بنى إسرائيل إلى العرب هذا من أسباب كفر بنى إسرائيل بالإسلام ورسوله والقرآن الكريم .

وإنّ الآية الكريمة لتنهى المؤمنين عن اتّخاذ الكافرين ، من بنى إسرائيل وسواهم ، أولياء من دون المؤمنين . وتحذّر الآية الكريمة المؤمنين الّذين يفعلون ذلك بأنّهم ليسوا من الله سبحانه وتعالى فى شىء ، ولا من دينه الّذى ارتضى لعباده ، وقد تبرّأ الله تعالى منهم كما تبرّأوا منه جلّ وعلا باتّخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين . وتستثنى الآية الكريمة المستضعفين الّذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك يصحّ لهم أن يتّقوا من الكافرين تقاة ، وأن يتّخذوا بألسنتهم تقيّة يتّقون بها أذى الكافرين بينما قلوبهم

---

(١) لسان العرب « وق » .

(٢) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٥٣ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٥٣ .

مطمئنّة بالإيمان عامرة به . وتحذّر الآية الكريمة المؤمنين بصريح اللّفظ إن هم تورّطوا في هذا الذّنب العظيم : « ويحذّركم الله نفسه » ويوم القيامة يجزون الجزاء الأوفى « وإلى الله المصير » .

والمعروف أنّ القرآن الكريم حذّر المؤمنين فى العديد من المواضع من اتّخاذ الكافرين أولياء جاء فى سورة النّساء[1] قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا لا تتخّذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً » . وجاء في سورة المائدة[2] قوله تعالى: « يا أيّها الّذين آمنوا لاتتّخذوا اليهود والنّصارى أولياء بعضهم أولياء بعض . ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم . إنّ الله لايهدى القوم الظّالمين » وقد أشارت سورة النّحل إلى عذر من أكره على قول كلمة الكفر بينما قلبه مطمئنٌّ بالإيمان . وبذلك هي تأخذ بسببٍ من الآية الكريمة الّتي بصددها . قال تعالى[3] : « إنّما يفترى الكذب الّذين لايؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون . من كفر بالله من بعد إيمانه إلاّ من أُكره وقلبه مطمئنٌّ بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذابٌ عظيم » .

---

(١) الآيــة ١٤٤ .
(٢) الآيــة ٥١ .
(٣) سـورة النّحـل ١٠٥ ، ١٠٦ .

﴿٢٩﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ ، وأمّته تبعٌ له في ذلك ، بأن يقول للمسلمين الذين يتّخذون فى الخفاء الكافرين أولياء من دون المؤمنين أو الّذين يعملون فى الخفاء أعمالاً يستحيون من إظهارها وإعلانها ، بأنّهم إن أخفوا ما فى صدورهم ، ويدخل فى الصّدور لاتّساعها القلوب والأفئدة والنفّوس ، أو أبدوه فإنّ الله سبحانه وتعالى يعلمه ويعلم ما فى السّماوات وما فى الأرض ، فلا يخفى على الله سبحانه وتعالى شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء . وتذيّل الآية الكريمة بالقول : « والله على كلّ شيءٍ قدير » وإنّ لفظ القدرة يتّسع كي يشمل العلم . وبهذا يتمشّى التّذييل مع التّلويح بالانتقام الّذى يفهم من السّياق . ويكون الانتقام وليد القدرة الّتى هي بدورها وليدة العِلْم . فثّمة تصريحٌ بالعِلْم فى صدر الآية الكريمة وتلويح بالقدرة ، وثمّة تصريحٌ فى عجز الآية الكريمة بالقدرة الّتى لا تكون إلاّ بناءً على العلم . فالله سبحانه وتعالى بكلّ شيءٍ عليم . والله سبحانه وتعالى على كلّ شيءٍ قدير .

﴿٣٠﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ

ومتى يكون الجزاء الحقّ ؟ يوم القيامة . وهذه الآية الكريمة تعيّن ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود . ونبادر إلى تقرير التّأكيد فى الآية الكريمة الّذى سبق أن جاء فى الآية الكريمة قبل السّابقة « ويحذّركم الله نفسه » ولا يكون مثل هذا التّحذير ، ولا يكون تكرير التّحذير وتأكيده إلاّ بشأن قضيّةٍ غايةٍ فى الأهمّيّة ألا وهي موالاة المؤمنين الكافرين واتخّاذهم أولياء وأصدقاء وحلفاء من دون المؤمنين . وفى يوم القيامة ، يوم الجزاء ، تجد كلّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ أو شر . فما عملت من خيرٍ تجده محضراً أمامها ، فهي راضيةٌ عنه سعيدة به قريرة العين . وهذا الخير قرين المقرّبين السّابقين وأصحاب اليمين . وما عملت نفوس أصحاب الشّمال غالباً من سوء تودّلو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ومكاناً قصيّاً ، وسفراً غير قاصد[1] أو أجلاً غير محدود[2] ويجىء للمرّة الثّانية فى سياق الآيات الثلاث القول : « ويحذّركم الله نفسه » ممّا هو دليلٌ على خطورة هذا العمل الّذى يقدم عليه بعض المؤمنين جهلاً منهم بمغبّته وخطورته . وإنّ من أوضح الأدلّة على خطورة هذا العمل أنّه السّبب الرّئيسيّ وراء ضياع الأندلس المسلمة فقد كان العديد من الحكّام المسلمين يستعينون بالحكّام النّصارى ضدّ إخوانهم من الحكّام المسلمين وكانت النتيجة أن تحقّقت الكارثة النّهائيّة بضياع الأندلس المسلمة تحقيقاً لتحذير ربّ العزّة عبادَه نفسه لو كانوا يفقهون ويطيعون . كما تحقّق فيهم قول المتنبّى شاعر العربيّة الحكيم :

ومن يَجْعلِ الضّرغام بازاً لصيده يصيّره الضّرغام فيما تصيدا

والمعنى أنّ من يجعل الأسد الضّارى بمثابة البازى الّذى يصيد به لصالحه ، فإنّ ذلك الأسد الضّارى لا يلبث أن ينقلب على صاحبه ويجعله فريسةً له .

---

(١) غير قاصد غير وسط . جاء فى سورة التّوبة ٤٢ : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً » أي وَسطاً .

(٢) انظر تفسير الطّبريّ ٣ / ١٥٥ .

ومن الأدلّة الأكيدة من الواقع على مدى خطورة هذا السّلوك المشين من بعض المسلمين هو أنّه رغم سقوط الأندلس من مئات السّنين بعد أن رفرفت راية الإسلام هنالك خفّاقةً زهاء ثمانية قرون ، فإنّ خصوم الإسلام لا زالوا يتلّذذون باسترجاع ذكريات طرد المسلمين من الأندلس ، ولا زالوا يحاولون جاهدين القيام بالعمل ذاته في حقّ أماكن إسلاميّة أخرى . لقد عقد فى لندن من سنوات مؤتمر ارتقى منبره أحد القسس وأخذ يستثير حماس الحضور ويدعو أن يُوَفَّقَ المسيحيّون الّذين طردوا المسلمين من إسبانيا أن يوفّقوا – خذلهم الله – لطرد المسلمين من القسطنطينية (إسلامبول أو استامبول) لقد كان الحضور يؤمّنون هاتفين « آمين » .

وأفادنى أخيراً أحد العلماء الأجلاّء أنّ الصّحف الباكستانيّة سجلّت إثر انتصار باكستان فى إحدى حروبها فى شبه القارّة الهنديّة ، أنّ فريقاً من الهنادك اتّجه إثر تلك الحرب إلى إسبانيا . وهنالك سأل الوفد الإسبانييّن عن الكيفيّة الّتى استطاعوا عن طريقها طرد المسلمين من إسبانيا كي يحذو الهنادك حذوهم . وكان جواب الإسبانيّين موجزاً ومركزّاً : كان المنافقون من المسلمين أكبر عونٍ لنا !

وتختم الآية الكريمة بالقول : « والله رءوفٌ بالعباد » ومن مظاهر رأفته جلّ وعلا بعباده تحذيرهم وتأكيد التّحذير من موالاة الكافرين وتذكيرهم بيوم القيامة الّذى لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون ، إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم . فعلى كلّ مؤمنٍ أن يركع ويسجد ويعبد ربّه ويفعل الخير ويجاهد فى الله حقّ جهاده . وقد قال تعالى[1] : « والذّين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين » .

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩ .

﴿٣١﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

هنالك الّذين يزعمون أنّهم يحبّون الله تعالى ويأتون من الأعمال ما لا يتمشّى مع ذلك الحبّ ويتركون الطّريق الوحيد المعبّر عن الحبّ الصّحيح . ومن هؤلاء الزّاعمين وفدُ نصارى نجران الّذين يغالون فى السيّد المسيح عليه السّلام زاعمين أنّهم بغلوّهم يعبرّون عن حبهم الشّديد لله تعالى . وترشد الآية الكريمة كلَّ الزّاعمين الحبّ إلى الطّريق الواحد الصّحيح المفضى بسالكه إلى الغاية الحميدة والنّهاية السعيدة ، وهذا الطّريق الواحد هو اتّباع المصطفى ﷺ محمّد بن عبدالله خاتم الأنبياء والمرسلين . ولا يقتصر هذا الطّريق الصّحيح على التّعبير الصّحيح عن حبّ الله تعالى إنّما يتجاوزه إلى الغاية الأسمى والمطلب الأسنى ألا وهو حبّ الله سبحانه وتعالى لأولئك العباد ومغفرته ذنوبهم السّابقة الّتى ارتكبوها ، ومن تلك الذّنوب الغلوّ السّابق فى عيسى عليه السّلام . وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى هو الغفور الرّحيم .

﴿٣٢﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ

تعمق هذه الآية الكريمة معنى الآية الكريمة السّابقة الّتى تطلب من النّاس أن يتّبعوا المصطفى ﷺ إن أرادوا التّعبير الصّحيح عن حبهم لله تعالى ، والحصول على حبّ الله تعالى لهم ، فتأمر الآية الكريمة النّاس بأن يطيعوا الله والرّسول . وإنمّا تكون طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ بتطبيق تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين . فإذا تولّى بعض النّاس عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ فإنّهم بذلك يخسرون حبّ الله تعالى لهم وحبّ رسوله الكريم ﷺ . وذلك معناه بطبيعة الحال أنّهم يخطئون التّعبير الصّحيح عن حبّ الله تعالى على غرار خطأ المغالين فى عيسى عليه السّلام الزّاعمين أنهم بغلوّهم فيه عليه السّلام وزعمهم أنّه إلهٌ – كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذباً – إنّما يعبرون عن حبّهم لله تعالى وتعظيمهم له جلّ وعلا[1] .

---

(١) انظر مثلاً تفسير الطّبريّ ٣ / ١٥٥ ، ١٥٦ .

آلِ عِمران و زکریّا علیہ السّلام

(آیات ۳۳-۴۱)

﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ

تبيّن الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى اصطفى بفضله واختار بنعمه وآلائه آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . وهذه السّورة الكريمة الّتى تحمل اسم « آل عمران » تتحدّث كثيراً عن بيت آل عمران . أمّا آدم عليه السّلام فإنه أبو البشر ، خلقه الله سبحانه وتعالى بيده ، وعلّمه أسماء المسمّيات كلّها ، وأسجد له ملائكته ، وأسكنه جنّته وأخرجه من الجنّة لما في ذلك من الحكمة . وأمّا نوح عليه السّلام فإنّه أوّل رسل الله تعالى إلى البشر حينما انحرفوا عن الطّريق القويم والصراط المستقيم . وأمّا إبراهيم عليه السلام فإنّه أبو الأنبياء ، فكلّ الأنبياء بعده من ولديه ، إسحاق عليه السّلام ، وهو والد كلّ أنبياء بنى إسرائيل ، وإسماعيل عليه السّلام ، ومن ذرّيته خاتم الأنبياء والمرسلين وأشرفهم محمّد بن عبد الله ﷺ النبيّ العربيّ القرشيّ الهاشميّ [1] وأمّا عمران فإنّه والد مريم بنت عمران أمّ عيسى ابن مريم عليه السّلام [2] وآل الرّجل أتباعه وقومه ومن هو على دينه [3] وقد اصطفى الله سبحانه وتعالى نوحاً وإبراهيم وجعل فى ذرّيتهما النّبوّة والكتاب . جاء فى سورة الحديد [4] قوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا فى ذرّيتهما النّبوّة والكتاب فمنهم مهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون » وقد جاء فى سورة الأنعام عن إبراهيم عليه السّلام وعن نوح عليه السّلام قوله عزّ من قائل [5] : « ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاًّ هدينا . ونوحاً هدينا من قبل . ومن ذرّيته داود وسليمان وأيّوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزى المحسنين . وزكريّا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ من الصالحين . وإسماعيل واليَسع ويونُس ولوطا ، وكلاًّ فضّلنا عن العالمين » وقد نبّه العلماء إلى صحّة جواز عودة الضّمير فى « ومن ذرّيته » إلى نوح عليه السّلام باعتباره أقرب مذكور ، ولا إشكال فى ذلك . وإلى إبراهيم عليه السّلام الّذى سيق الكلام من أجله « لكن يشكل عليه لوط فإنّه ليس من ذرّيّة إبراهيم ، هو ابن أخيه هاران بن آزر الّهمّ إلاّ أن يقال إنه دخل فى الذّرّيّة تغليباً » [6] .

---

(١) انظر هنا مثلاً تفسير ابن كثير ٢ / ١٥٤ بشأن تفسير الآية ٨٤ من سورة الأنعام .
(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٣٥٨ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٥٦ .
(٤) الآيــة ٢٦ .
(٥) ســورة الأنعام ٨٤ – ٨٦ .
(٦) تفسير ابن كثير ٢ / ١٥٥ .

﴿٣٤﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

رتّبت الآية الكريمة السّابقة تأريخياً أسماء المُصْطَفَيْنَ الأخيار . وهذه الآية الكريمة تنص على كون المصطفين المتأخّرين زمناً هم ذرّيّة المصطفين المتقدّمين زمناً . فبعض هؤلاء من بعض . ونستطيع أن نفهم أنّ هذه الذّرّيّة إنمّا كان لها هذا الشّأن بشأن دين الله تعالى الّذى اهتمّت له وحرصت عليه وعملت من أجله ، وإلاّ فليس للنّسب فى ذاته ، لولا الدّين ، أدنى قيمة . بل قد يأتي الخوف على الدّين من قبل الذّرّيّة والموالى ، وما أكثر الأدلّة من القرآن الكريم على ذلك ، ومن ذلك ما جاء على لسان زكريّا عليه السّلام في سورة مريم[1] قال تعالى : « وإنّي خفت الموالي من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لي من لدنك وليّاً » إنّ أقارب زكريّا عليه السّلام كانوا منصرفين عن الدّين ولذا خافهم عليه السّلام على الدّين وسأل الله تعالى الذّرّيّة الصّالحة من صلبه الّتى تقوم على الدّين وتجاهد من أجله .

وتقرّر الآية الكريمة فى تذييلها أنّ الله سبحانه وتعالى سميع لكلّ ما يقال عليمٌ بكلّ ما يفعل وبالنّوايا ، ومن ذلك ما قالته امرأة عمران على نحو ما ذكرت الآية الكريمة التّالية .

---

(١) الآيــة ٥ .

﴿٣٥﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ
مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

« ... محمّد بن إسحاق قال : تزوّج زكريّا وعمران أختين فكانت أم يحيى عند كريّا ، وكانت أمّ مريم عند عمران ، فهلك عمران وأمّ مريم حاملٌ بمريم فهي جنينٌ فى لها . قال : وكانت فيما يزعمون قد أمسك عنها الولد حتىّ أسنّت ، وكانوا أهل بيتٍ ن الله جلّ ثناؤه بمكان . فبينا هي فى ظلّ شجرةٍ نظرت إلى طائرٍ يطعم فرخاً له ، حرّكت نفسها للولد فدعت الله أن يهب لها ولداً فحملت بمريم وهلك عمران . فلمّا رفت أنّ فى بطنها جنيناً جعلته لله نذيرة . والنّذيرة أن تعبّده لله فتجعله حبساً فى كنيسة لا ينتفع به بشيءٍ من أمور الدّنيا »[1] واسم امرأة عمران حنّة[2] .

ومعنى الآية الكريمة : اذكر يا محمّد إذ قالت حنّة امرأة عمران والدة مريم البتول قد أيقنت أنّها بفضل الله تعالى حامل : ربّ إنّي نذرت لك ما فى بطنى محرّراً من كلّ شوائب الدّنيا خالصاً لعبادتك وحدك لاشريك لك ، متفرّغاً لخدمة كنيسة بيت المقدس ، وكانت تظنّ أنّها حاملٌ بولد وكانوا يفرّغون الأولاد للعبادة وخدمة الكنيسة . دعت امرأة عمران الله تعالى أن يتقبّل منها نذرها وحبسها ما في بطنها لعبادة الله تعالى . فتقبّل منّى إنّك أنت السّميع العليم » فالله سبحانه وتعالى سميعٌ لنذر امرأة عمران عليم بنيّتها الصّادقة الخالصة . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تختم بما تختم به الآية الكريمة السّابقة من إشارة إلى السّمع وإلى العلم .

---

[1] تفسير الطّبريّ ٣ / ١٥٧ .
[2] تفسير الطّبريّ ٣ / ١٥٧ .

﴿٣٦﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

وإنّي أعيذها بك وذرّيّتها : وإنّى أجعل معاذها ومعاذ ذرّيّتها من الشّيطان الرّجيم بك . وأصل المعاذ المَوْئل والمَلْجأ والمَعْقِل[1] .

الرّجيم : المطرود[2] .

وضَعَتِ امرأة عمران بإرادة الله تعالى أنثى وقد كانت تأمل أن يكون المولود ذكراً فهو الّذى جرت العادة أن يحرّر للكنيسة لقدرته على ذلك واستعداده بخلاف الأنثى الّتى تحول طبيعتها ، من الحيض والنّفاس وما إليهما ، عن ذلك . فلمّا وضعتها قالت ربّ إنّى وضعتها أنثى ، وتبيّن الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى أعلم بما وضعت امرأة عمران فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيء فى الأرض ولا فى السّماء ، ويعلم ما فى الأرحام . وتستمر امرأة عمران فى القول : وليس الذّكر الّذى طلبت وتمنّيت كالأنثى الّتى تفضّلت بها يا ربّى فأعطيت . وإنّى سميتها مريم ، وقد فُهِم من التّسمية هنا « جواز التّسمية يوم الولادة ، كما هو الظّاهر من السّياق ، لأنّه شرع من قبلنا ، وقد حُكِي مقرَّراً ، وبذلك ثبتت السّنّة عن رسول الله ﷺ »[3] وإنّى أعيذ المولودة بك وذرّيّتها من الشيطان الرّجيم المطرود من رحمتك المبعد عنها ، وأجعل لديك ياربى ملجأهما ومعاذهما . وقد استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء امرأة عمران ، فأعاذها الله وذرّيّتها ، يعنى عيسى عليه السّلام من الشّيطان الرّجيم . روى البخاري ومسلم عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ما من مولود يولد إلاّ مسّه الشّيطان حين يولد فيستهلّ صارخاً من مسّه إيّاه إلاّ مريم وابنها . ثمّ يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : وإنّى أعيذها بك وذرّيّتها من الشّيطان الرّجيم[4] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٦٠ .
(٢) الجلالين .
(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٣٥٩ .
(٤) تفسير ابن كثير ١/٣٥٩ وانظر تفسير الطّبريّ ٣/١٦٠ .

﴿٣٧﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

فتقبّلها ربّها : أي قبل مريم من أمّها [١] .

وكفّلها زكريّا : بتشديد الفاء ، بمعنى وكفّلها الله زكريّا [٢] أي جعله لها كافلاً [٣] .

المحراب : مقدّم كلّ مجلسٍ ومصلّى . وهو سيّد المجالس وأشرفها وأكرمها . كذلك هو من المساجد . ومنه قول عديّ بن زيد :

كدُمَى العاج فى المحاريب أو كالـ ـبيض فى الرّوض زهره مستنير

المحاريب جمع محراب وقد يُجْمَعُ على محارب [٤] .

أنّى لك هذا ؟ : مَنْ أين لك هذا ؟ [٥] ومِنْ أيّ وجهٍ لكِ هذا الّذى أرى عندك من الرزق [٦] .

أتت امرأة عمران بابنتها مريم بنت عمران لأحبار سدنة بيت المقدس فقالت : خذوا نكم هذه النّذيرة ، فتنافسوا فيها لأنّها بنت إمامهم فقال زكريّا : أنا أحقّ بها لأنّ خالتها عندى فقالوا : لا ، حتّى نقترع ، فانطلقوا وهم تسعةٌ وعشرون إلى نهر الأردنّ فألقوا أقلامهم على أنّ من ثبت قلمه وصَعِد فهو أولى بها ، فثبت قلم زكريّا فأخذها

---

(١) الجلالين .
(٢) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٦٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٠ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٦٧ .
(٥) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٠ .
(٦) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٦٧ .

وبنى لها غرفةً فى المسجد بسلّم لايصعد إليها غيره وكان يأتيها بأكلها وشربها ودهنها ، فيجد عندها فاكهة الصّيف فى الشّتاء وفاكهة الشّتاء فى الصّيف[1] وقيل كان عمران « زوج أختها كما ورد فى الصّحيح : فإذا بيحي وعيسى وهما ابنا الخالة . وقد يطلق على ما ذكره ابن إسحاق – من كونه زوج خالتها – ذلك أيضاً توسُّعاً فعلى هذا كانت فى حضانة خالتها »[2] .

تبيّن الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة المربىّ عبادة بنعمه وآلائه قد تقبّل مريم البتول من والدتها الّتى حرّرتها خالصةً لعبادة الله تعالى وحده لاشريك له بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً ونشّأها النّشأة الطيّبة الطّاهرة المباركة ، فمعدنها نقيّ ، والمحيط الّذى عاشت فيه وترعرعت طيّب طاهر ، فتعاون الأصل الطيّب والبيئة العطرة على إنبات مريم البتول بمشيئة الله تعالى النّبات الحسن الطيّب المبارك . ومن مظاهر كرامة مريم البتول المنقطعة لعبادة الله تعالى أنّ زكريّا عليه السّلام كافلَها ، كلّما دخل عليها المحراب ، وهو مقام الإمام للصّلاة فى المسجد ، وقد كانت البتول منقطعةً لعبادة الله تعالى وحده لاشريك له ، وجد عندها رزقاً ، « قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو الشّعثاء وإبراهيم النّخعيّ والضّحاك وقتادة والرّبيع بن أنس وعطيّة العوفى والسّدّىّ : يعنى وجد عندها فاكهة الصّيف فى الشّتاء وفاكهة الشّتاء فى الصّيف »[3] ويسألها زكريا عليه السّلام من أين لها ذلك الرّزق وما مصدره ؟ ويكون جوابها كلّ مرّة يسأل : « هو من عند الله . إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب » فلا رادّ لفضله جلّ وعلا ولا معقّب لحكمه .

---

(١) تفسير الجلالين . وانظر تفسير الطّبريّ ٣ / ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٠ .

﴿٣٨﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ

هنالك : عند ذلك . أي عند رؤية زكريّا ما رأي عند مريم من رزق الله الّذى رزقها وفضله الّذى آتاها من غير تسبّب أحدٍ من الآدميّين فى ذلك لها ومعاينته عندها ثمرة الرّطبة الّتى لاتكون فى حين رؤيته إيّاها عندها فى الأرض طمع فى الولد مع كبر سنّه من المرأة العاقر (١) .

من لدنك : من عندك (٢) .

الذّريّة : النّسل (٣) .

تبيّن زكريّا عليه السّلام أمراً خارقاً للعادة مخالفاً للمألوف فضلاً من الله تعالى على مريم البتول حينما يرزقها جلّ وعلا بغير حساب وحينما تجيئها دون عناء فاكهة الصّيف في الشّتاء وفاكهة الشّتاء فى الصّيف ، وذلك رمزٌ لمجيء الرّزق إليها الّذى يقلّ غرابة ، عند ذلك دعا زكريّا عليه السّلام ربّه مربّيه بنعمه جلّ وعلا وآلائه أن يهبه كرماً منه تعالى وتفضلاً ذرّيّةً طيّبةً ونسلاً مباركاً من صلبه عليه السّلام ، فالله سبحانه وتعالى سميعٌ مجيب الدّعاء . إنّه عليه السّلام قد بلغه الكبر وتمكّن منه . وإنّ زوجه عليه السّلام عاقرٌ لا تلد أساساً . وإنّ رزق الله تعالى مريم البتول من لدنه جلّ وعلا فضلاً منه تعالى ومنّة ، أغراه عليه السّلام بأن يدعوه جلّ وعلا القادر على كلّ شيءٍ بأن يهبه ما هو بحاجةٍ إليه من الذّرّيّة كما وهب جلّ وعلا مريم البتول فضلاً منه تعالى ومنّة لذيذ الطّعام فى غير أوانه ، ودون معاناة . وقد أشارت كلٌّ من سورة الأنبياء ومريم بشيءٍ من التّفصيل إلى دعاء زكريّا عليه السّلام . جاء فى سورة الأنبياء (٤) قوله تعالى : « وزكريّا إذ نادى ربّه ربّ لاتذرنى فرداً وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٦٧ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٦٨ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٦٨ .
(٤) الآيــة ٨٩ ، ٩٠ .

إنّهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغَباً وَرَهَباً وكانوا لنا خاشعين ». وجاء فى سورة مريم[1] قوله تعالى : « كهيعص . ذِكْرُرَحْمة ربّك عبده زكريّا . إذ نادى ربّه نداءً خفياً . قال ربّ إنّى وَهَن العظم منّى واشتعل الرّأس شيباً ولم أكن بدعائك ربّ شقيّاً . وإنّى خفت الموالي من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً . يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله ربّ رضيّا . يا زكريّا إنّا نبشّرك بغلامٍ اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميّا . قال ربّ أنّى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيّا . قال كذلك قال ربُّك هو علىّ هيّنٌ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً . قال ربّ اجعل لى آية . قال آيتك ألاّ تكلّم النّاس ثلاث ليالٍ سويّا . فخرج على قومه من المحراب فأوْحَى إليهم أن سبّحوا بكرةً وعشيّا . يا يحيى خذ الكتاب بقوّةٍ وآتيناه الحكم صبيّاً . وحناناً من لدنّا وزكاةً وكان تقيّا . وبَرًّا بوالديه ولم يكن جبّاراً عصيّا . وسلامٌ عليه يوم وُلِد ويوم يموت ويوم يبعث حيّان » .

وللآيات الكريمة التّالية من سورة آل عمران ارتباط بدعاء زكريّا عليه السلام وإجابة الله تعالى دعاءه .

---

(١) الآيات ١ – ١٥ .

﴿٣٩﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ

مصدّقاً بكلمةٍ من الله : مصدّقاً بعيسى ابن مريم عليه السّلام فإنّه كلمة الله تعالى قال له كن من غير أب فكان . « وكان يحيى أوّل من صدّق بعيسى وشهد أنّه كلمةٌ من الله ، وكان يحيى ابن خالة عيسى وكان أكبر من عيسى »[١] .

وسيّدا : السّيد : الكريم على الله[٢] والسّيّد فى العبادة والحلم والعلم والورع[٣] وحصوراً : لا يأتى النّساء[٤] .

إنّ زكريّا عليه السّلام المجتهد فى عبادة الله تعالى وفى الدّعاء ، تناديه الملائكة وهو قائمٌ يصلّى فى المحراب أنّ الله سبحانه وتعالى يبشّره بابنٍ ذكرٍ من صلبه وهو الّذى بلغ من الكبر عتيّاً ومن زوجه العاقر الّتى شاءت إرادة الله تعالى لها أن تلد وأن تصلح وراء ذلك ، كلّ ذلك فضلٌ من الله تعالى على هذين الزّوجين المجتهدين فى عبادة الله تعالى وحده لاشريك له . وتسمّى الآية الكريمة هذا الابن بأنّه يحيى ، وكأنّ يحيى عليه السّلام عبدٌ أحياه الله بالإيمان[٥] ثمّ هو مصدّقٌ بعيسى ابن مريم عليه السّلام كلمة من الله تعالى وروحاً ، كريم على الله تعالى وعلى عباده الصّالحين لحلمه وعلمه وورعه وعبادته الله تعالى . ووراء كلّ هذه النّعم فإنّ الله تعالى اصطفى يحيى عليه السّلام بنعمة النبّوة ، وليس وراء نعمة النبوّة والرّسالة نعمة وفيهما يتجسّد كلّ الصّلاح وخالصه .

---

(١) تفسير الطّبري ٣ / ١٧٢ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٧٣ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٧٣ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٧٤ وانظر رأي القاضى عياض فى الشّفاء فى معنى الحصور تفسير ابن كثير ١ / ٣٦١ .
(٥) تفسير الطّبرى ٣ / ١٧١ .

﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ

لقد كان فرح زكريّا عليه السّلام ببشارة الملائكة غامراً ، وحرصه على تحقّق البشارة شديداً ، ورغبته فى التثبّت من كون الغلام سيكون من زوجه العاقر أكيدة ، وكان عقم زوجه مِنْ جنس كونه قد بلغ من الكبر عتيّا ، وقد ألهمه الله سبحانه أن يجري على لسانه السّؤال : ربّ أنىّ يكون لى غلامٌ وقد بلغني الكبر وامرأتى عاقر ، بمعنى كيف يكون لي ولد ذكر من صلبى وأنا الّذى قد بلغت من الكبر عتيّا ، فقد كانت سنّه فيما يقال مائةً وعشرين سنة[1] ومن زوجي العاقر الّتى لاتنجب منذ أن بلغت مبلغ النّساء وأصبحت امرأة ، يضاف إلى ذلك أنّ سنّها آنذاك ثمانٍ وتسعون سنة[2] لقد كان الجواب على لسان المَلَك[3] كما جاء فى الآية الكريمة : « قال كذلك الله يفعل ما يشاء » « أي هو ما وصف به نفسه أنّه هيّنٌ عليه أن يخلق ولداً من الكبير الّذى قد يئس من الولد ومن العاقر الّتى لايُرْجى من مثلها الولادة كما خلقك يا زكريّا من قبل خلق الولد منك ولم تك شيئاً ، لأنّه الله الّذى لا يتعذّر عليه خلق شيءٍ أراده ولا يمتنع عليه فعل شيءٍ شاءه ، لأنّ قدرته القدرة الّتى لايشبهها قدرة »[4] .

---

(١) الجلالين .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٣٦٢ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٧٦ .

﴿٤١﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً

قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ

آية : علامة [١] .

رمزاً : إيماءً وإشارة [٢] .

العشيّ : من حين تزول الشّمس إلى أن تغيب ، كما قال الشّاعر :

فلا الظّلّ من برد الضّحى تستطيعه ولا الفيء من برد العشيّ تذوق [٣]

الإبكار : مصدر من قول القائل : أبكر فلان فى حاجةٍ فهو يُبْكر إبكاراً وذلك إذا خرج فيها من بين مطلع الفجر إلى وقت الضّحى فذلك إبكار . يقال فيه : أبْكَرَ فلان وبَكَرَ يَبْكُرُ بُكورا . فمن الإبكار قول عمر بن أبى ربيعة :

أمِنْ آل نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبْكِرُ [٤]

أراد زكريّا عليه السّلام أن يستعجل البشارة وأن يكون لديه العلامة الأكيدة عليها ، فسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل له آية تدلّ على حمل زوجه العاقر منه وهو الشّيخ الكبير الفانى ، وكان الجواب بأنّ الآية الّتى سألتها هي أن ينعقد لسانك بخلاف ذكر الله تعالى ثلاثة أيّام بلياليهنّ ، لاتستطيع أن تكلّم النّاس إلاّ إشارةً وإيماءً ، ومن الجائز أن يتمّ ذلك بالعين أو بالحاجب أو باليد أو بالرّأس . أمّا ذكر الله سبحانه وتعالى ذكراً كثيراً ، وتكبيره جلّ وعلا وتسبيحه وتنزيهه عن كلّ ما لايليق بجلاله وعظمته صباحاً ومساءً ، نهاراً وليلاً ، بكرة وأصيلا ، وفى كلّ الأوقات ، فإنّ لسان زكريّا عليه السّلام

---

(١) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٧٦ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٧٨ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٧٩ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٣ / ١٧٩ .

قادرٌ على كلّ ذلك بإرادة الله تعالى . وقد جاء في سورة مريم[1] : « قال ربّ اجعل لى آية . قال آيتك ألاّ تكلّم النّاس ثلاث ليال سويّا . فخرج على قومه من المحرب فأوْحى إليهم أن سبّحوا بُكْرةً وعشيّا » ويلاحظ اهتمام زكريّا عليه السّلام بتسبيح الله تعالى وتنزيهه جلّ وعلا عن كلّ ما لايليق بجلاله وعظمته سبحانه ، والتّسبيح من صميم ذكر الله تعالى ، وزكريّا عليه السّلام نفسه مقبلٌ فى المحراب على ذكر الله تعالى وعبادته جلّ وعلا . وكلّ ذلك دليلٌ على أهميّة الذّكر . والمعروف أنّ الذّكر هو العبادة الوحيدة الّتى لم يضع الشّارع الحكيم نهايةً لها لتحّقق الذّكر فى كلّ الأحوال ، ومن هذه الأحوال أن ينعقد لسان زكريّا عليه السّلام عن كلّ كلام بخلاف ذكر الله تعالى .

---

(١) الآيـة : ١٠ ، ١١ .